ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 30 أكتوبر 2019

الشعبويّة التي لا وجود لها

جاك رانسيير

ترجمة: فتحي المسكيني

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019

الشعبويّة التي لا وجود لها[1]

جاك رانسيير

ترجمة: **فتحي المسكيني**

1 Jacques Rancière, « L'Introuvable populisme », *in* Badiou Alain *et al., Qu'est-ce qu'un peuple ?*, Paris, La F - brique, 2013, pp. 137-143

لا يمرّ يوم في أوروبا لا نسمع فيه أحدا يشجب مخاطر الشعبويّة؛ إلاّ أنّه ليس من اليسير أن ندرك ماذا يعني هذا اللفظ على وجه الدقة، فهو قد استُعمل في أمريكا اللاتينية إبّان الثلاثينيات والأربعينيات من أجل الإشارة إلى نمط معيّن من الحكم، يؤسّس بين الشعب وقائده علاقةَ تجسيدٍ مباشرة، ويتخطّى أشكال التمثيل البرلماني. هذا النمط من الحكم الذي كان فارغاس في البرازيل وبيرون في الأرجنتين بمثابة نماذج أصلية عنه قد منحه هوغو شافيز اسما جديدا هو "اشتراكيّة القرن الواحد والعشرين". لكنّ ما نشير إليه اليوم تحت اسم الشعبويّة في أوروبا هو أمر آخر.

إنّه ليس نمطا من الحكم، بل هو على الضدّ من ذلك موقف رافض بوجه ما إزاء الممارسات الحكومية السائدة، إذْ ما هو الشعبويّ، كما تعرّفه اليوم نخبنا الحاكمة وإيديولوجيّوها؟ - متى نظرنا في كلّ تموّجات اللفظ، فإنّ الخطاب السائد يخصّصه على ما يبدو من خلال ثلاثة ملامح جوهريّة: أسلوب في التخاطب يتوجّه مباشرة إلى الشعب ما وراء ممثّليه ووجهائه؛ والقول بأنّ الحكومة والنخبة القائدة هي تهتمّ بمصالحها الخاصة أكثر ممّا تهتمّ بالشأن العام؛ وأخيرا، خطابة هوويّة تعبّر عن الخشية من الغرباء ورفضهم. ومن الواضح رغم ذلك، أنّه ليس من ضرورة تربط بين هذه الملامح الثلاثة.

أمّا أنّه يوجد كيانٌ يسمّى الشعب هو مصدر السلطة، وهو المحاور الرئيس للخطاب السياسي، فذلك ما تصرّح به دساتيرنا، وهو القناعة التي عبّر عنها الخطباء الجمهوريون والاشتراكيون للزمن القديم، وهو أمر لا ينطوي على أيّ شكل من المشاعر العنصرية أو الكارهة للأجانب، وأنَّ سياسيّينا يشغلهم تدرّجهم الوظيفي أكثر ممّا يشغلهم مستقبل مواطنيهم، وأنَّ حكوماتنا تعيش في وئام مع ممثّلي المصالح المالية الكبرى، هو أمر لا نحتاج في التشهير به إلى أيّ ديماغوجيّ. إنّ الصحافة التي تندّد بالتجاوزات "الشعبوية"، إنّما تقدّم لنا عنها هي نفسها، يوما بعد يوم، الشهادات الأكثر تفصيلا. ومن جهتهم، فإنّ رؤساء الدولة والحكومة، المنعوتين في بعض الأحيان بالشعبويّة، مثل برلوسكوني وساركوزي، هم يحذرون جيّدًا من إشاعة الفكرة "الشعبويّة" بأنّ النخبة فاسدة. إنّ مصطلح "الشعبويّة" لا يُستعمَل من أجل تخصيص قوّة سياسيّة محدّدة، بل على الضدّ من ذلك هو يستفيد من الالتباسات التي يسمح بها بين قوى سياسية تذهب من أقصى اليمين إلى اليسار الراديكالي، وهو لا يشير إلى إيديولوجيا ولا حتى إلى أسلوب سياسي متماسك، بل هو يُستخدَم فقط من أجل رسم صورة شعب معيّن.

ذلك أنّ "الشعب" لا وجود له. ما يوجد هي هيئات متباينة، بل حتى متضاربة، من الشعب، هيئات تمّ بناؤها بتفضيل أنماط معيّنة من تجميع الناس، بعض الملامح المميّزة، بعض القدرات أو أشكال العجز: شعب عرقي أو إثنيّ معرَّف بواسطة الاشتراك في الأرض أو الدم؛ شعب-قطيع يحرسه رعاة خيّرون؛ شعب ديمقراطيّ يقوم بتشغيل كفاءة الذين لا يملكون أيّة كفاءة محدّدة؛ شعب جاهل تحرص الأقلّية الحاكمة على

إبقائه بعيدا عن الأضواء، إلخ. إنّ فكرة الشعبويّة إنّما تبني، هي بدورها، شعباً مخصَّصا عن طريق السبك أو الخلط المخيف بين القدرة- القوّة الخام للعدد الكبير-، من جهة، وعدم القدرة- الجهل المنسوب إلى هذا العدد الكبير نفسه، من جهة أخرى. وإنّ السمة الثالثة، نعني العنصريّة، هي جوهريّة بالنسبة إلى هذا البناء، إذْ يتعلّق الأمر بأن يوضّح المرء للديمقراطيين، المتّهمين دوما بالنزعة "الملائكية"، ما هو الشعب العميق على الحقيقة: قطيع مسكون بغريزة بدائيّة للرفض هو في نفس الوقت يستهدف الحكّام الذين يصفهم بالخونة، بسبب عدم فهم تعقّد الآليات السياسيّة، كما يستهدف الأجانب الذين يخشاهم نتيجة التصاق وراثي بإطار عيش مهدّد بالتطوّر السكّاني والاقتصادي والاجتماعي.

إنّ فكرة الشعبويّة، إنّما تقوم دون تكلفة كبيرة بهذه التوليفة بين عناصر شعب عدوّ "للآخرين" عموما. من أجل ذلك، يجب عليها أن تعيد إلى الركح صورة عن الشعب، تمّ وضعها في أواخر القرن التاسع عشر من طرف مفكّرين من قبيل هيبوليت تان وغوستاف لوبان، أرعبتهم كومونة باريس وصعود الحركة العمّالية: صورة الجموع الجاهلة المنبهرة بالكلمات الرنانة "للقادة" والمنقادة إلى أشكال العنف الشديد بواسطة انتشار الإشاعات التي لا ضابط لها والمخاوف المعدية.

وبلا ريب، فإنّ الانفلاتات الوبائية للجموع العمياء المجرورة وراء زعماء كاريزماتيين قد كانت بعيدة جدًا عن واقع الحركة العمالية التي كانت تريد تشويهها. لكنّها لم تكن مناسبة أيضا، من أجل وصف واقع العنصرية في مجتمعاتنا. فمهما كانت الادّعاءات التي يُعبَّر عنها كل يوم إزاء أولئك الذين نسمّيهم مهاجرين، وبالخصوص "شباب الضواحي"، فهي لا تترجم نفسها في مظاهرات شعبية جماهيرية. إنّ ما يستحقّ اسم العنصرية اليوم في بلادنا هو بشكل أساسي الجمع بين هذين الأمرين. إنّها أوّلا أشكال التمييز في التشغيل أو في السكن التي تُمارَس بشكل كامل في المكاتب المعقّمة، خارج كلّ ضغط من الجماهير، ثمّ ترسانة من إجراءات الدولة: تقييدات على الدخول إلى الإقليم، ورفض منح أوراق ثبوتية لأناس يعملون، يساهمون في الصناديق ويدفعون الضرائب في فرنسا منذ سنوات، وتقييد على حقّ مسقط الرأس، والعقوبة المزدوجة، والقوانين على الحجاب والبرقع، والمعدّلات المفروضة من الترحيل إلى الحدود أو تفكيك مخيّمات الرحّل.

وإنّ بعض النفوس الطيّبة من اليسار يسرّها أن ترى في هذه الإجراءات تنازلا بائسا قام به حكّامنا تجاه اليمين المتطرّف "الشعبوي" لأسباب "انتخابية". ولكن لا واحد منها قد أُخذ تحت ضغط الحركات الجماهيرية، بل هي تدخل ضمن استراتيجية خاصة بالدولة، خاصة بالتوازن الذي تسعى دولُنا إلى تأمينه بين التنقّل الحرّ لرؤوس الأموال والعوائق التي تحول دون تنقّل السكّان. وبالفعل، فإنّ هدفها الرئيس هو دفع مجموعة من سكّان البلاد إلى العيش في وضع هشّ وعرضيّ فيما يتعلق بحقوقهم كعمّال أو

كمواطنين، وتكوين جموع من العمّال يمكن دوما طردهم خارج البلاد وجموع من الفرنسيين ليسوا متأكّدين من البقاء فيها.

تلك إجراءات تستند إلى حملة إيديولوجية، تبرّر هذا التخفيض في الحقوق بواسطة الأدلّة على عدم الانتماء إلى الملامح المميّزة للهوية الوطنية. ولكن ليس "شعبويّو" الجبهة الوطنية هم الذين دشّنوا هذه الحملة، بل مثقّفون، من اليسار كما يُقال، هم الذين وجدوا الحجّة الدامغة التي تقول: هؤلاء الناس ليسوا بالفعل فرنسيين بما أنّهم ليسوا لائكيين. إنّ اللائكيّة التي كانت في السابق تعرّف قواعد سير الدولة هي بذلك، قد أصبحت صفة يمتلكها الأفراد أو يفتقدون إليها بسبب انتمائهم إلى أمّة ما. وإنّ "الزلّة" الأخيرة التي اقترفتها مارين لوبان، فيما يخص هؤلاء المسلمين الذين هم في صلاتهم يحتلون الشوارع مثل الألمان ما بين 1940 و1944، هي من هذه الناحية زلّة مفيدة وحمّالة عبرة؛ فهي لا تفعل سوى أن تكثّف في صورة ملموسة سلسلة خِطابية (مسلم= إسلاموي= نازي) تُجرّ في كل مكان من الأدبيات التي يُقال عنها جمهوريّة. إنّ اليمين المتطرّف المنعوت بأنّه "شعبوي" هو لا يعبّر عن شعور كاره للأجانب مخصوص نابع من أعماق الجسد الشعبي؛ بل هو كويكب يصرّف في عملته الخاصة استراتيجيات الدولة والحملات الفكرية المتميزة. إنّ دولنا تؤسس اليوم شرعيتها على قدرتها على تأمين الأمن. لكنّ هذه الشرعنة، إنّما تلتزم ضرورة في المقابل بأن تشير في كل لحظة إلى الوحش الذي يهدّدنا، وأن تحفظ الإحساس الدائم بانعدام الأمن الذي يخلط مخاطر الأزمة والبطالة مع مخاطر الجليد أو عنصر الفورماميد من أجل تتويج الكلّ في التهديد الأعلى للإرهاب الإسلاموي. إنّ اليمين المتطرّف يكتفي بوضع ألوان اللحم والدم على البورتريه النموذجي الذي رسمته الإجراءات الوزارية وأدبيات الإيديولوجيين.

وهكذا لا "الشعبويون" ولا الشعب نفسه، الذي تمّت مسرحته ومشهدته بواسطة التنديدات الطقوسية بالشعبويّة، يطابقون تعريفهم على الحقيقة. لكنّ هذا لا يهمّ كثيرا أولئك الذين يهيّجون الشبح الذي يرقد خلفه. فما وراء الخصومات حول المهاجرين أو الجماعاتية أو الإسلام، ما هو جوهري، بالنسبة إليهم، هو أن يمزجوا وأن يخلطوا بين فكرة الشعب الديمقراطي نفسها، وبين صورة الجموع الخطيرة. ومن ثمّ أن نستخلص النتيجة بأنّه يجب علينا أن نستسلم لمن يحكموننا، وأنّ كلّ اعتراض على شرعيتهم وعلى نزاهتهم هو بمثابة باب مفتوح على الأنظمة الشمولية. "إنّ جمهورية الموز أفضل عندنا من فرنسا فاشية"، هكذا قال واحد من أكثر الشعارات القاتمة ضدّ حزب لوبان في أبريل 2002. إنّ الضجيج الحالي حول الأخطار المميتة للشعبويّة، إنّما هدفه أن يؤسّس على مستوى النظرية فكرةَ أنّنا لا نملك أيّ خيار آخر.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2019

All rights reserved © 2019